

وماذا بعد يا عمرو موسى ؟

هل تتحول جامعة الدول العربية إلى نشاط آخر وتقوم بمهمة لا تجد من يقوم بها ؟

ناهض منير الرئيس

النائب عن مدينة غزة

عمرو موسى اسم من الأسماء الكبيرة التي توحى بالانتماء للأمة والتجاوب مع نبضها وأمنياتها . وفي الزمن الذي يبحث فيه الناس عن أبطال فقد توسموا البطولة في هذا الدبلوماسية الذي لم تمنعه مقتضيات الدبلوماسية من التعبير بقوة عن رفض العرب للأمر الواقع الذي تريد القوى الكبرى تدجينهم عليه . ولذا أدخل الضمير الشعبي اسم عمرو موسى في الأغنية الشعبية وخصه بالمحبة . وكان لتعيينه أمينا عاما لجامعة الدول العربية وقع البشارة في كثير من الأوساط . وربما كان الفلسطينيون من أكثر العرب استبشارا بذلك التعيين .

ومع علم الجميع أن جامعة الدول العربية لم تكن في يوم من الأيام ميدان بطولة أو ترجمانا للمطامح القومية ، بل ومع علمهم أنها مثلت - بمعنى من المعاني - تكريسا للانفصال العربي وبديلا عن وحدة منشودة منذ أوائل القرن العشرين ، فإن الحاصل أن الكثيرين علقوا على عهد عمرو موسى في أمانة الجامعة العربية آمالا تفوق ما يتسع له المجال .

فما بالننا إذن والزمن الذي تسلم فيه عمرو موسى هذه المسؤولية الثقيلة كان بدوره زمنا ثقيل وضع الجامعة وجها لوجه أمام أقسى اختبار : حيث تبدو بمثابة الإطار الوحيد الذي يمكن أن يجتمع تحت سقفه أصحاب المسؤولية في الرد على التحديات الداهمة ، ولكن تبين أنه ليس في نيتهم الاضطلاع بالمسؤولية حقا ، وظهر للعيان أنه ليس للجامعة سلطان لإلزامهم أو لإلزام أحد منهم بالاضطلاع بالمسؤولية التي نتحدث عنها .

نعم .. نعم .. ليست للجامعة العربية بحكم أحكام ميثاقها سلطة الإلزام بإرادة المجموع أو بقرار مأخوذ بالأغلبية مثلا . وليس لرأي الشعوب أو للهيئات الشعبية مكان ولا حساب ولا آلية تأثير في هذه الهيئة الخاصة بالدول . وأمام قسوة الاختبار وثقل الزمن ظهرت جامعة الدول العربية في

أسوأ مظهر مهلهل في تاريخها على الرغم من أنها تحظى بأفضل أمين عام مؤهل ومقدر . فجامعة الدول العربية اليوم أسوأ مما كانت حين تعرضت للاختبار الكبير عام ١٩٤٨ . وأنداك تجسدت في إطار جامعة الدول العربية إرادة سياسية استطاع معها عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام للجامعة أن يكتب إلى الأمين العام للأمم المتحدة قائلا :

((نظرا لأن أمن فلسطين وديعة مقدسة في عنق الدول العربية ؛ ورغبة في وضع حد لهذه الحالة ؛ وفي منعها من أن تتفاقم وتتحوّل إلى فوضى لا يعلم مداها أحد ؛ ورغبة في منع انتشار الاضطراب والفوضى في فلسطين إلى البلاد العربية المجاورة ؛ وفي سد الفراغ الحادث في الجهاز الحكومي الفلسطيني نتيجة لزوال الانتداب وعدم قيام سلطة شرعية تخلفه ، فقد رأت حكومات الدول العربية نفسها مضطرة إلى التدخل في فلسطين لمجرد مساعدة سكانها على إعادة السلم والأمن وحكم العدل إلى بلادهم ؛ وحقنا للدماء)) .

كليشيات مهلهلة

لسنا في وارد الحديث عن أن عبد الرحمن عزام الذي قال هذا الكلام كان قد وافق قبل ذلك بشهور على الاجتماع برجال الوكالة اليهودية في شقة سرية بلندن بواسطة أصدقاء مشتركين ، وأنهم فهموا منه أن الحرب مع العرب واقعة لا محالة (وهذا ما يرويّه آبا إيبان أول وزير خارجية لإسرائيل في كتابه بعنوان سيرة ذاتية) . ولسنا في وارد الحديث عن أن الجيوش العربية دخلت إلى فلسطين ثم انسحبت منها ولم تنجح في تحقيق أي من الأهداف التي تحدث عنها الباشا ، ثم انجلى غبار المعارك عن مأساة اللاجئين الفلسطينيين وعن قيام دولة عبرية على أرض الفلسطينيين !! الخ ، الخ .. أجل .. لسنا في معرض الحديث عن شيء من هذا الآن ..

فما يهمنا في هذا المعرض هو أن ردة الفعل التي صدرت في ذلك الزمن لمواجهة الظلم والعدوان الذي تعرضت له فلسطين تمثلت في عبارة (أمن فلسطين وديعة مقدسة في عنق الدول العربية) . وعندما نقارن هذه العبارة المبدئية بالكليشيات المهلهلة المستخدمة في الزمن الراهن ، إذ يواجه العرب أهل البلاد في بلادهم حملة من القتل والدمار والتعسف لم يسبق لها مثيل ، ولا يجهلها كل من له في رأسه عينان تشاهدان التلفزيون . في حين يصمت معظم المسؤولين صمت أهل القبور ويتحدث البعض وفقا للمفهوم

الغربي ومصطلحاته مثل مصطلح (النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي) ومصطلح (إعادة الطرفين إلى مائدة المفاوضات) ومصطلح (التوقف عن استخدام العنف) وقد أخرجوا أنفسهم منه كأنهم يتكلمون عن نزاع في القطب الجنوبي ، عندما نقارن هذا الزمن الأغبر بالزمن الغابر فإننا نشعر أن الانتماء القومي لدى الأنظمة العربية أصيب بداهية وبشلل أفقده النطق . وإذا كنا لا نجهل أن النظام العربي كان في الزمن الغابر أعجز من أن يوفي التبعات التي رتبها عليه ذلك الالتزام حيال الوديعة المقدسة ، أي أن قدراته لم تستطع أن (تفعل) ما ينبغي من أجل الدفاع عن الوديعة المقدسة ولم تساعد سكان فلسطين على " إعادة السلم والأمن وحكم العدل إلى بلادهم ، ولا حققت دماءهم " ، فإن الكلام عن الوديعة المقدسة وعن الشعور بالمسؤولية تجاهها ، وإن مواجهة المنظمة الدولية العالمية بهذا الكلام وبالظهور صفا واحدا ، يعد موقفا متقدما ، ومتقدما جدا عن موقف النظام العربي الحالي الذي لا يستحي معظم أطرافه من الإنشاد والترديد بلسان الحال وراء الأغنية الساخرة التي يقول فيها وديع الصافي " إن حادت عن راسي .. بسيطة " .

التبرؤ من الانتماء

ونكرر ثانية : نحن فاهمون تماما أن العبرة بالأعمال لا بالأقوال ، وأن الآية الكريمة القائلة : " كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " ، تلزم الناس أن لا يتجاوزوا في أقوالهم ما يستطيعون عمله فعلا . بل وإنما نستطرد ونقول إن من أقبح العيوب التي تحتاج إلى معالجة حينما توضع مناهج إعادة التربية العربية قيد العمل عيب التكلم بما لا يستطيعه المتكلم . ولكن الشيء الذي نحن بصدده في هذه المقارنة إنما يتعلق بالتراجع العربي الملحوظ عن رابطة (الانتماء) من أساسها . وهي الرابطة التي تقيد الجميع بمبدأ التشارك في مواجهة التحديات ، والتي وجد الجيل القديم الذي طالما نعينا عليه قصوره وفساد عهود الحكم في أيامه صيغة متواضعة تعترف بأهميتها وإلزاميتها ، هي صيغة الدفاع المشترك الملحقة بميثاق جامعة الدول العربية . أما اليوم فنحن في الزمن الذي عمد فيه معظم المسؤولين إلى استخدام الصيغ التي تعني إن فلسطين خاصة بالفلسطينيين والعراق خاص بالعراقيين ، وعلى كل بلد أن (يقلع شوكة بيده) كما شاع في دهاليز السياسة العربية . وجوهر المسألة بعد ذلك أن التصرف على هذا

النحو يهدم الجماعة ويعبئ الناس تعبئة معنوية تقوم على إنكار الرابطة القومية ويحصر الأنظار والاهتمامات في محيط القطر ، ويجعل الجامعة العربية مجرد منبر احتفالي لا حظ له من الصدقية .

ولن نسرع - مع ذلك - للانزلاق نحو تأييد الخطوة الليبية بالانسحاب من الجامعة العربية حالياً . فهذه الخطوة تفصح عن انفعالية مستهجنة تستسهل الانتقال من الاتجاه الأقصى إلى الاتجاه الأقصى المضاد ، في لحظة تاريخية تتطلب الاستماتة في حفظ الحد الأدنى من التماسك . ولكن المرء لا يملك إلا أن يعترف بأن الحالة العربية الراهنة تولد الانفعال الزائد وتقدم لمن يرغب ألف ذريعة للتشكك في حاضر الأمة بل وفي ماضيها المجيد .

ماذا بوسع عمرو موسى ؟

ما الذي يستطيع عمرو موسى أن يفعله في زمن يخرج فيه بعض العرب قائلين : " لقد اتخذ الأمريكيون أراضينا قواعد للحرب ضد العراق وأصبح هذا أمراً واقعاً لا حيلة لنا فيه ولا بد من جلوسنا مع الأمريكيين للتعبير عن الأمر الواقع الحاصل فقط لا غير "؟! ويقول ناطق آخر : " لقد تبين لنا أن مساعدتنا أسر الشباب الاستشهاديين في فلسطين بمالنا كان خطأ سوف نعدل عنه "؟! ويقول ثالث : " عرفنا الآن أن جامعة الدول العربية منظمة فاشلة لا نرغب في البقاء داخلها؟! " ويقول آخرون : " نحن بعيدون جغرافياً عن المناطق العربية الساخنة وفي ذلك عذر لنا في موقفنا المؤيد عن بعد "؟! ويقول غيرهم : " نحن في شغل أي شغل بجهود التنمية وإطعام الأفواه الجائعة "؟! أما الناطق العمومي الذي يمثلها جميعاً فهو القائل : " اقنعوا (أيها الفلسطينيون وأيها العراقيون) منا بالقليل الذي ربما نقدمه لكم ، ولا تكلمونا فيما هو خارج طاقتنا ، لنألا نغضب ونحرمكم من ذلك القليل " !

ما هذا ؟ هل نحن بحاجة إلى ربانة يصمدون في وجه العاصفة المتجهمة أم إلى فئران تتقاذف من السفينة المهددة بالغرق ؟

تعج الساحة العربية بهذه الأصوات المنكرة المتلاحقة التي يستنفر بعضها بعضاً والتي تتجاهل السبب الأول في ضعفها وتهالكها وركوعها على أربع أمام السي آي إيه والموساد . وما ذلك السبب إلا إصرار كل منها على التهرب مما لا هروب منه . فإذا اتضح لها من الوقائع السياسية الجارية

ومما يرشح من حقائق تنشرها الصحف الأجنبية أن المواجهة ستفرض عليها ذات حين فرضا رغم محاولة التهرب ، قادهما ذلها المزمّن أو قصر نظرها المعتاد إلى التمسح بالأجنبي والتمرغ على أعتابه من أجل الحصول على إيماءة - مجرد إيماءة - تطمئنهما بأنها لم توضع بعد على قائمة الضرب والتدمير ، ما دامت تواصل التبرؤ من كل شبهة تشير إلى العزم على استحداث خطة عربية واحدة أو بناء قوة عربية تتألف من مجموع القوى للدفاع عن الأمن المشترك .

هذا داء عضال يصعب علاجه على نطس الأطباء . وهؤلاء العجزة المعاقون به لا يستطيعون أن يرفعوا عيونهم إلى رؤية أعلى . حتى إنهم لا يستطيعون أن يتمسكوا حيال الأجنبي برؤية أسفل منهم ، أعني الرؤية التي سبق أن تمسك بها عزام باشا محذرا ومتذرا حين نبه الأجنب إلى الأخطار التي تحيط بمصالحهم في حال " انتشار الاضطراب والفوضى من فلسطين إلى البلاد العربية المجاورة " .

أما في زماننا فينام الكثيرون على وهم الأمان الذي يعدهم به الأجنبي بعد أن وفر لهم آخر مخترعات تكنولوجيا الملاحقة والتتصت وانتزاع الاعترافات كي يؤمنهم من الأخطار الداخلية . ويعرف هؤلاء أنهم مدخولون في صميم أجهزتهم ومفاصلهم الحساسة وأن كراسيهم تظل محمية طالما لم يسجل عليهم الأجنبي مؤاخذاة . ويظنون أنهم بمأمن ما داموا لا يرون ولا يسمعون ولا يتكلمون . وينسون ما كان بعد نكبة فلسطين من زلازل أودت بعروش وكراسي . وينسون العبرة الأحداث عهدا في إيران الشاه ، التي كان السافاك فيها فرعا عضويا من السي آي إيه ومن الموساد ، إلا أن السافاك لم يغن عن عرش الطاووس شيئا ؛ ولم يؤخر العاصفة التي اقتلعت بنيانا كان يبدو شامخا حصينا عصيا على الزعزعة .

لا يستطيع عمرو موسى أن يقنع أولئك الذين استمرأوا الثرثرة والخدر شأن أبطال رواية نجيب محفوظ ، والذين يخشون الانطلاق في الزمن خارج ذهبيتهم ، أن الزمن يجري وأن أمواجه كاسحة وتوشك أن تجرف الذهبيات كلها .

طراز أكثر حدائثة

وخلاصة القول إن من المستحيل تقريبا تعديل ميثاق جامعة الدول العربية بحيث تصبح منظمة إقليمية بحق وحقيق وليس مجرد مكان يشبه النقابات الحكومية التي تقام فيها الاحتفالات في المناسبات وتظل فيما بقي من الوقت فارغة عاطلة عن الحيوية والحركة .

وبينما العالم من حولنا يشهد قيام الوحدات الكبرى التي تتراوح مساحاتها وتعداد سكانها بحجم قارات أو شبه قارات ، مثل الاتحاد الأوروبي ، والاتحاد الروسي ، ناهيك عن الولايات المتحدة ودول كالهند والصين ، إذا بنا نصر على أن نبقي (فتافيت) ، ونكتشف أن الأجنبي يريد لنا مزيدا من التفتيت ، ويقوم بالممارسات التي تفصح عن نواياه في هذا السعي الخبيث ، فلا نقوم بشئ ، ولو كان من قبيل تعزيز جامعة الدول العربية ، بل نصطنع حنكة دبلوماسية هدفها الوحيد اجتناب غضبة القوي فنأخذ في نسج التصريحات التي لا تغضبه ولا تغضب شعوبنا في آن معا . ويا لها من عبقرية !

ويبدو للمرء أن المسؤولين العرب ليسوا على استعداد - إطلاقا - للفهم واستيعاب أن من الخير لهم - حتى على المستوى الشخصي - إبداء شيء من التحسس بالمزاج العام في المنطقة والإقدام لا على خطوة ثورية في حجم إعلان الوحدة العربية الشاملة - معاذ الله - بل ، وذلك من أضعف الإيمان ، تطوير جامعة الدول العربية وتعزيز إطارها بإكسابها قوة وجدية وشخصية مستقلة لا يكون الضعيف في مسيرتها أمير الركب ولا تغرب عن آمال الفئات الشابة في الأمة . ويدخل في نطاق التطوير بالحد الأدنى تفعيل عشرات الاتفاقات المعقودة منذ أربعة عقود من الزمان بدءا بميثاق الدفاع العربي المشترك ومرورا بالسوق العربية المشتركة .. إلخ .. إلخ . وهي الاتفاقات التي ما كادت تشاهد النور في أجهزة الإعلام حتى دفنت في الأدرج .

ومن هنا ستظل الفجوة بينهم وبين عامة الناس متسعة حتى يفاجئهم ما فاجأ غيرهم من قبل . وأخشى ما نخشاه أن تكون الجهة التي تجهز لهم تلك المفاجآت هي القوى التي يخافونها ويمتنعون عن إظهار الإرادة المستقلة وعن الإقدام على المشروعات الوحدوية رعبا منها وتحسبا لها . فهذه القوى هي التي تتبنى وتربي وتختزن عملاء من طراز أكثر (حادثة)

وأكثر انسياقا وتقبلا لكل ما يبغيه الأسياد ؛ وكذا أكثر انخلاعا من شخصية الأمة ومن أمانيتها .

لماذا اعتذرت حنان عشراوي ؟

ولكن .. إذا كنا قد استعرضنا ما لا يستطيع عمرو موسى بوصفه الأمين العام لجامعة الدول العربية أن يفعله إزاء واقع الرسمية العربية الراهن ، فما الذي يبقى له ، وما المبرر لبقائه على رأس عمله ؟

أعتقد أن شيئا واحدا يبقى أمامه ، وهو التركيز على إدارة جهاز علاقات عامة وإعلام عربي موحد في الغرب . وقد عبر كاتب السطور عن هذه الفكرة سابقا فور اختيار عمرو موسى أمينا عاما للجامعة . وها هي وقائع الأحوال تبرهن على استحالة عمل الشيء المطلوب من الجامعة بوصفها منظمة إقليمية عربية تستمد معناها ووزنها السياسي . لو شاءت . من تشكيلها كتلة سياسية ذات سياسة واحدة (على الأقل نحو العالم الخارجي) وأعتقد أن السيد عمرو موسى الذي كان على وشك الاستقالة من منصبه مؤخرا أدرك أن هذا الهدف غير ممكن ما دامت العقلية الحاكمة مقعدة عند أفكارها ومواقفها ومفاهيمها . وعندما اختيرت حنان عشراوي مفوضة في الجامعة لشؤون الإعلام رأينا ذلك خطوة في الاتجاه الصحيح . ولا ندري السبب الذي حملها على الاعتذار ، أو لعل المشكلة كانت في الجامعة .

وجبهة الإعلام في الغرب واحدة من الجبهات التي خسرتها في السنوات الماضية وهزمتنا فيها شر هزيمة ، وذلك دون داع ودون سبب قاهر .

ولو توقف التشويه الذي لحق بنا عند حد القضية الفلسطينية وحقائقها لهان الأمر . ولكن الحرب الإعلامية الخبيثة التي تديرها اللوبيات الصهيونية في الغرب اتسعت لتشمل تشويه العرب قاطبة بوصفهم عنصرا من العناصر وتشويه الإسلام بوصفه عقيدة من العقائد . وبينما يفعل الصهيونيون ذلك في خدمة إسرائيل ومشاريعها التوسعية وحروبها القادمة ، لاسيما مع ارتفاع نجم اليمين وأمثال شارون ونتنياهو ، فإن الغرب ينساق مع الدعاية الصهيونية بسهولة ، لأنها تعرف كيف تخاطبه من ناحية ولأنها تحسن استثمار المواطنين اليهود الأمريكيين والأوروبيين وتجندهم بلا كلل .

ومع أن أعداد المغتربين العرب في تلك البلاد تفوق أعداد الصهيونيين فإن العرب يفتقدون - كما هي العادة - التنظيم والخطة والصياغات المطلوبة . ولا تخفى المخاطر التي تنجم عن تعبئة العقل الغربي ضد القضايا العربية ، بل لا تخفى المخاطر على الجاليات العربية في تلك البلاد نفسها ، لأن نشوء كنيسة مسيحية متصهينة ذات أتباع بالملايين ، يقودهم قساوسة متعصبون وقحون في عدائهم وتعصبهم ، تنذر في واقع الأمر بشن حرب اضطهاد عرقي ضد تلك الجاليات .

بيروقراطية استاتيكية موروثية

وهناك في بلاد كتلك البلاد فرص للعاملين والمجتهدين ولو بدأوا متأخرين . لأن من فضائل تلك البلاد أنها وقد بلغت ما بلغت من الرقي في نواح شتى فإن مواطنيها يقيمون وزنا للعقل والمنطق والحق . والعقل والمنطق والحق والعدل في صفنا نحن العرب والمسلمين . والآية الكريمة تقول (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) . والعرب تقول (الحق أبلج والباطل لجلج) . لكن ذلك كله رهن بالعمل والجهد والاجتهاد والاجتهاد . والجريمة الكبرى هي أن يكون أعداؤنا في باطلهم أكثر اجتهادا وحيلة منا في حقنا . فهل يسارع عمرو موسى إلى سد ثغرة قد لا تمنع الدول الأعضاء جميعا في سدها بعدما سلقت الألسن الصهيونية العرب والمسلمين دولا وملوكا ورؤساء ومنظمات وشعوبا وشوهدت حقائق قضاياهم وأثبت عليهم المجتمعات الغربية .

يخيل إلينا أن الكفاح من أجل تصحيح صورة العرب في بلاد الناس لا يصطدم بسيادة أحد ، ولا بسياسة أحد ، ولا بحساسيات أحد ، ولا بمصالح أحد .

ويخيل إلينا - على قدر ما يتاح لنا أن نرى - أن تكييف أجهزة الجامعة العربية المركزية والإقليمية والمغتربة وإحداث التحولات اللازمة فيها تدريجيا ليغلب عليها التخصص في (الكفاح الإعلامي وتوضيح صورة العرب للناس في الخارج) هو خير من بيروقراطية استاتيكية موروثية ينست من القيام بدور حقيقي في خدمة المستقبل العربي فهي تقضي الأعمار على المكاتب نصف عاطلة عن العمل - ونأمل المعذرة من الأخ عمرو موسى ومن الإخوة الكوادر والموظفين الذين لا ذنب لهم - . ويخيل إلينا أيضا أن من الخير إنفاق الميزانيات ، ولو أنها ليست تلك الكبيرة ، في حقل تحريك

الجاليات العربية المتطلعة تطلعا غريزيا للوفاء لهويتها وانتمائها وللإفصاح عن نفسها وعن قضايا مواطنها الأصلية وهي بحاجة لإمدادها بمادة مدروسة وبمنهج مرسوم يوجه ويحفز عملها التطوعي ، ويرشد مسعاها من أجل تأسيس التعاون مع الشرفاء والمنصفين في الغرب . وعندما يطلع المرء على الإحصائيات حول أعداد مغتربينا ، ومعظمهم شبان متعلمون عاليا ، فإنه يعجب لتقصيرنا ولإهمالنا تلك الثروة البشرية القادرة على فعل الكثير . فلتكن مكاتب الجامعة العربية مرجعا تقصده مجالس اتحادات الطلاب وأساتذة الجامعات ورجال الأعمال الذين يغارون على مواطنهم الأولى ويتوقون للبذل من أجل قضاياها العادلة . لا ريب أن جميع الدبلوماسيين العرب عرفوا أثناء وجودهم في الخارج نماذج من هذه الشخصيات التي نغنيها ونشير إليها . ولا بد أن بالوسع تصور الحيوية الديناميكية التي ستنبص في عروق الجامعة العربية إذا احتضنت مثل هذه الجهود وهذه النماذج .

وربما كنت شخصا قد عبرت عن اليأس من الغرب ومن مواقفه في بعض المقالات ، ولكنني وأنا أستمع إلى بعض البرامج التلفزيونية في بعض القنوات الفضائية ، حول الكنيسة المتصهينة في أمريكا التي لم يواجه نشوءها ولا استفحالها في الإعلام والسياسة أحد فإذا بالرأي العام يفاجأ لدينا بحقائق مدهشة تشمل من جملة ما تشمل وجودا مؤذيا لمن تأثروا بتلك الظاهرة ووصلوا إلى البيت الأبيض نفسه . كذلك استمعت إلى حديث عن وجود كنائس ذات وزن وتأثير في المقابل ، مستعدة للوقوف إلى جانب الحق إذا حاورها أصحاب الرؤية والاختصاص والعلم ، وتجلى لبصيرتي أن تقصيرنا قد يكون مسؤولا عن التخلف الذي نعانيه في حقل الإعلام كما في كل حقل آخر بدرجة لا تقل عن مسؤولية الأعداء والمتأمرين .

هذا ثغر لا يجد من يقف عليه ، وأرض بكر قام الصهيونيون بحرث مساحة لا يستهان بها منها ، فهل يستخدم عمرو موسى مكانته الخاصة لكي يملأه برواد مخلصين ، يبذرون في تلك البلاد بذور الحقيقة ، فيصبح حرث الخصوم مع الزمن حرثا في بحر لا في يابسة؟!!

سيرة عطرة لشهيد من الصفوة

لا شك أن الجهة التي خطت لقتل العقيد تيسير زايد خطاب جهة محترفة. فمجرد أن يكون تاريخ قتله هو تاريخ يوم ميلاده يوحي أن المخططين المجرمين، سواء كانوا الأعداء المباشرين أو وكلاءهم المرتزقة بالقتل، قد اختاروا وقت التنفيذ عن دراية بالسجل الشخصي الدقيق للرجل وعن علم بذلك التاريخ. فكأنما توعدوا في قرارة أنفسهم أن ربيعهم الرابع والأربعين سيكون ربيعهم الأخير.

كان فتى مميذا. أنبته بيت فلسطيني مر بغربال الأيام وعاصر شقاء الهجرات المتعددة: هجرة ٤٨، وهجرة ٦٧، وهجرة ٧٣، وغيرها وغيرها. أما هجرة ٤٨ فلم يشهداها تيسير بل كابد والده ووالدته أهوالها. لأنه من مواليد دير البلح ١ / ٩ / ١٩٥٧... أي أنه ولد بعد قرابة ستة أشهر من انقلاع جيش الاحتلال الصهيوني من قطاع غزة إثر هزيمة العدوان الثلاثي ورحيل شركاء إسرائيل بريطانيا وفرنسا عن بورسعيد يجرون أنيال الخيبة والفشل.. وشاءت الأقدار أن تنتقل الأسرة بسبب ظروف عمل الوالد من دير البلح إلى مصر. وهكذا دخل الصبي العاقل الرصين المدارس الابتدائية في القاهرة. وتصفه والدته في تلك المرحلة أنه كان وهو ابن سبع سنوات يتصرف تصرف الرجل المدرك. وكم من طفل فلسطيني انتقل من الطفولة المبكرة إلى الرجولة دفعة واحدة. والسبب تفتح العيون في الطفولة على الظلم والعسف وقصة البيت المفقود والأرض المضاعة والموطن الأول الذي يحق لكل فلسطيني عرف بلاده أن يشعر بالحنين إليه، كيف لا وهو أجمل بلاد الدنيا وأطيبها مناخا وأعذبها ماء وأنها عيشا وعشرة؟!!

للأسرة الفلسطينية وللمعلمين الفلسطينيين الفضل في غرس حب الوطن في نفوس الأجيال الصغيرة التي ولدت بعد هجرة عام ١٩٤٨ ولم تر فلسطين وإنما سمعت بها من الكبار. وربما كان في حديثهم مبالغة، وربما أفاضوا في محاسن المدن والقرى التي أخرجوا منها، وربما لم يقصدوا المبالغة ولكن النكبة هبطت بمستوى حياتهم فجأة فكارنوا بين عيشة المواطن التي ضمنت لهم الكرامة على الأقل وبين عيشة المخيم الذي حشروا فيه حشرا وعانوا فيه المصاعب والهموم. وهكذا كان الوطن جنة بمقياس

المقارنة بين عيش وعيش وبين ماض وحاضر، ناهيك عن مقياس المقارنة بين فلسطين الأرض والمناخ والتضاريس وبين غيرها من بلاد الناس.

ووالد تيسير ووالدته إنسانان منتميان شريفان. وفي ذلك البيت الذي كان الصبي فتاه البكر تلقى أولى دروس الوطنية، وهي حب الوطن والتعلق به وكراهية الظلم مع التصميم على العودة ولو كره الغاصبون. ففي أعماق قلب كل فلسطيني صغير أو كبير رفض وإبء للظلم الذي حاق بالفلسطينيين من غير ذنب اقترفته أيديهم. وإبء الظلم فطرة إنسانية قبل أن تكون تربية وتوجيها.

وكانت مصر أثناء تفتح وعي الطفل الذي دخل المدرسة الابتدائية تعيش عصر جمال عبد الناصر وأيامه المجيدة حيث القضية الفلسطينية هم أساسي من هموم الرئيس والدولة والإعلام والرأي العام، وحيث مصر مركز حركة التضامن الآسيوي - الإفريقي وعاصمة معدودة بين أهم ثلاث عواصم لدول عدم الانحياز. وخلاصة القول أن الفلسطيني المقيم في مصر يشعر أنه معنى وأن قضيته معنى بكل ما يدور هناك.

ومثل هذه الأجواء تعزز في نفس الطفل المتفتح إحساس الاعتزاز الوطني والمساندة القومية. ويمكن القول من هذه الناحية أن الصبي تيسير تلقى تعزيزا مناسباً للأسس التربوية التي غرسها فيه التوجيه الأسري.

كان والد تيسير منخرطاً في نشاطات حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح منذ البدايات. وقد تلقى توجيهها بالسفر إلى القطر العربي السوري للعمل في اللجنة العلمية التابعة للحركة هناك. وانتقلت العائلة بكامل أفرادها واستقرت في دمشق، وجلس تيسير على مقاعد الدراسة الإعدادية ثم الثانوية في مدارس دمشق وتلقى المناهج المفعمة بالفكر القومي والرابطة القومية. وأبدى تفوقاً في دراسته. ودفع به والده الحريص على توجيهه قواه في تلك المرحلة العمرية إلى ما هو جدي ومفيد نحو رياضة الجودو والكراتيه، فأثبت تفوقاً فيها يضارع تفوقه في الدراسة، وحصل على حزام أسود (دان ٢).

وكانما شعر بعد حصوله على الشهادة الثانوية أن الواجب يناديه، فلم يلبث أن انتقل من سوريا إلى لبنان وانتظم متفرغاً في صفوف حركة فتح، وتعرف إلى الشهيد القائد صلاح خلف أب المؤسسة الأمنية الفلسطينية الذي اكتشف قدرات الشاب النشيط الهادئ العامل في صمت، فقربه واعتمد عليه

في العديد من مهام العمل السري. وفي تلك المرحلة عرفته طبعاً النخبة المحيطة بصلاح خلف وعرفه الرجل الثاني في الأمن الموحد أمين الهندي. وحينما حدثت النقلة الكبرى والتوقف الاضطراري في البرهة التي أعقبت خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان إلى تونس، قرر أبو إياد أن الفرصة مناسبة لإرسال الشاب الموثوق ليتلقى علماً أكاديمياً يسند ممارسته العملية ويصقل شخصيته حتى يصبح من أعمدة الأمن وقادته الأكفاء، واختار أن يرسله إلى أكاديمية العلوم الأمنية في تشيكوسلوفاكيا (وذلك بطبيعة الحال قبل أن يتفكخ المعسكر الشيوعي وقبل أن تصبح تشيكوسلوفاكيا دولتين اثنتين).

كانت العودة إلى الدراسة بعد سنوات بيروت الخمس المليئة بالعمل والممارسة فرصة ذهبية أحسن الشاب الجاد استغلالها. فعلى الرغم من كونه أصغر طلاب الأكاديمية الأمنية سناً فقد برز بروزاً ملحوظاً، الأمر الذي دفع إدارة الأكاديمية إلى تشجيعه للاستمرار في دراساتها العليا. وفي برهة قياسية حصل على درجة الدكتوراة في اختصاص القانون الدولي والأمن الجنائي.

ولدى عودته إلى تونس وجد المهام العديدة في انتظاره. وكانت أول مهمة كبيرة تسند إليه فيثبت جدارته المعهودة من جديد هي اضطراره بالمسؤولية عن أمن المؤتمر السادس لحركة فتح عام ١٩٨٩. وتوالت المهام تباعاً في مخاض ولادة السلطة الفلسطينية على طريق أوصلو. ودائماً كان تيسير خطاب حاضراً جاهزاً مختصاً وموثوقاً في مجال حماية الشخصيات القيادية. وتخلل تلك الفترة زواجه من سناء شقيقة مناضل آخر من جهاز أمن أبو إياد هو فؤاد النجار. فكانت تلك المناسبة ماثراً ارتياح أبو إياد الذي يهتم لكل صغيرة وكبيرة من شؤون رجاله العاملين معه.

لم يجد اللواء أمين الهندي أفضل من تيسير زايد خطاب مساعداً له في قيادة جهاز الأمن بعد العودة للوطن. كان ملف تيسير نظيفاً عامراً بالإنجاز ومدعاة للثقة واليقين بإخلاصه وإمكان الاعتماد عليه. وأسندت إليه في قيادة الجهاز مسؤوليات التدريب الأمني، بالإضافة إلى مأموريات الاتصال الخارجي.

وحافظ تيسير خطاب طوال حياته على القيم الأساسية التي تربي عليها. ظل ملتزماً مستقيماً منضبطاً. وظل دؤوباً عاملاً في صمت. وظل محترماً

بعيدا عن الصغائر.

قيل لي إن بعض معارفه رغبوا في الاستفادة من مركزه في الحصول على امتياز ما. ولكنه امتنع عنهم. فلما أخرجوه قائلين: لماذا تتمنع عن تلبية طلبنا في حين أن الجميع يخدمون جماعتهم؟ أجاب: (من عند كل الناس تطلع عوجا، لكن من عند تيسير خطاب تطلع عدلة). وهذه كلماته بنصها كما قصها علي بعض من عرفوه.

ما تزال جريمة اغتيال الدكتور تيسير خطاب مقيدة ضد مجهول. وهناك أكثر من جريمة اغتيال سياسي كلها مقيدة ضد مجهول. ولكننا في بلاد مقدسة لا يبقى فيها السر القبيح مخبوءا. ويوما ما ستتكشف الأيدي الأثيمة التي نفذت مؤامرة اغتيال الرجل الذي كان أمينا بما فيه الكفاية وذكيا بما فيه الكفاية ولكنه - وهو العليم بمبادئ أمن حماية الشخصيات - لم يتخذ لنفسه الاحتياطات بما فيه الكفاية.

ألف رحمة على تلك الروح الطاهرة، روح الجندي الفلسطيني المخلص والوفي، الذي عرفته وطنيا مخلصا ومناضلا فعلا ومثالا للتهذيب والرغبة في المساعدة، انطلاقا من شعوره أنه صاحب رسالة وابن ناس طيبين.

